مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الاول - المجلد الثاني والخمسون

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دراسات في تاريخ الاقتصاد العربي قبل الإسلام
الأحوال الاقتصادية في دولة الغساسنة

الدكتور جواد مطر الموسوي
قسم التاريخ ــ كلية الآداب
جامعة بغداد

الملخص

الغساسنة قبائل عربية نزحوا من اليمن في القرن الخامس الميلادي واستقروا في بلاد الشام ، وكانوا في حركة دائمية ما بين وادي (حوران) ومنعطف نهر الفرات ، واستقر بعضهم على نهر (بردى) واتخذوا من منطقة (الجابية) مركزاً لإماراتهم .

ويتناول هذا البحث النواحي الاقتصادية للغساسنة من صيد وزراعة وصناعة وتجارة وعلاقاتهم الاقتصادية مع المدن والدول المجاورة ، والغرض من هذا البحث تسليط الأضواء على الاقتصاد والعلاقات الاقتصادية لمنطقة الشرق .

وقد توصل الباحث الى مجموعة من النتائج منها :

ان الغساسنة غلبت عليهم البداوة ، فكانوا ينتقلون وراء الماء والكلأ ويمارسون الصيد وتوضح ذلك من زخرفة لرسوم على القصر الأبيض واستقر بعضهم واخذ يمارس الزراعة لاسيما ان ملوكهم اخذوا يهتمون بإنشاء وإصلاح القنوات والمنشآت المائية ، فزرعوا القمح والشعير ، وأنبتوا الأشجار ومنها الكروم ، غرض صناعة الخمور والنبيذ كما

قاموا بصناعة العطور والمنسوجات والصناعات الغذائيـــة وصياغـة الذهب .

كما كان الغساسنة تأثير واضح في التجارة والطرق التجارية المارة في بلاد الشام ، فكانت تمر عن طريقهم سلع الصين والهند وإفريقية واليمن وكانت لهم محطات ومراكز تجارية وأسواق متفرقة واهم هذه الأسـواق سوق (دومة الجندل) وموارد مائية مثل ضريبـــة (الـرأس) التـــي تفرض على القبائل التابعة لهم ، وضريبة (العشـــر) علـــى القوافـل التجارية .

الغساسنة قبائل من الازد اليمنية ، هاجرت الى بلاد الشام علـــى اثـر انكسار سد مأرب، وتدهور نظم الري والزراعـــة فـــي جنـــوب شـــبه الجزيرة العربية، فنزلت في ارض (البلقاء)[١] حول نبع يدعى (غسان) فعرفوا بالغساسنة[٢]، ويسمون بـــ (آل جفنة) نسبة الى أول ملوكـــهم جفنة بن عمرو[٣]، ويعرفون ايضاً بـــ (آل ثعلبة) نسبة الـــى جدهـــم ثعلبة بن مازن[٤]، كان غرضهم من الهجرة هو البحث عن الأراضـــي الأكثر خصوبة وتكفي لسد حاجاتهم المتزايدة .

---

[١] البعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب ، تـــاريخ اليعقوبـــي، دار صـــادر ، بـــيروت (١٤٠١هـــ) جـــ١، ص٢٠٤ .

[٢] الاصفهاني ، حمزة بن الحسن، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، منشـورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (لا . ت) ص ٨٩ .

[٣] الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان، دار صادر ، بـــيروت ، بـــيروت (١٩٧٩م) جـــ ٤ ، ص ٢٠٣ .

[٤] المسعودي ، ابو الحسن علي ، التنبيه والاشـــراف ، مكتبـــة خيـــاط، بـــيروت (١٩٥٦م) ص ١٨٦.

نزل الغساسنة في بادية الشام بجوار الضجاعمة[٥]، وهم بنو ضجعم بن حماطة بن سعد بن سليح بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وكانوا المسيطرين على الشام، ويجبون من نزل بساحتهم للروم البيزنطيين، ففرضوا ضريبة (جزية) الرأس عليهم فرضيت غسان، وبعد مدة رفضوا الدفع ، فاندلعت الحرب بينهما، وانتهت بغلبة الغساسنة في موضع يقال له (المحفف) وانفرادهم بالسيطرة على بلاد الشام ، ثم إقرار الروم البيزنطيين بهم، خشية ان يميلوا مع الفرس الساسانيين ضدهم[٦]، ثم انه أمراً واقعاً[٧].

ويعتقد ان دولة الغساسنة نشأت في أواخر القرن الخامس الميلادي[٨]، وعلى الرغم من ان الغساسنة كانوا في حالة حركة دائمة ومستمرة، يتنقلون من حوران حتى منعطف نهر الفرات[٩]، لكن ديارهم الأساسية تمتد ما بين الجولان ونهر اليرموك[١٠]، وكانوا يقيمون بالقرب من

---

[٥] اليعقوبي ، تاريخ العقوبي ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

[٦] ابن حبيب ، ابو جعفر محمد ، المحبر ، تحقيق : ابلزه ليختن شتيتر ، حيدر آباد ـ الدكن (١٩٤٢م) ص ٣٧١ .

[٧] الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جامعة الموصل (١٩٩٤م) ص ٢٥٦ .

[٨] نولدكة ، ثيودور ، أمراء غسان، ترجمة : يندلي جوزي وقسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت (١٩٣٣م) ص ٨ ـ ٩ .

[٩] بلا شير ، ريجس ، تاريخ الادب العربي ، ترجمة ، إبراهيم كيلاني ، مطبعة الجامعة السورية ، دمشق (١٦٥٦م) جـ ١ ، ص ٣٠٩ .

[١٠] المسعودي ، ابو الحسن علي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة (١٩٥٨م) جـ ١ ، ص ١٠٩ .

دمشق في موضع على نهر بردى ، يعرف بـ (جلق) وقد اشار لـه الشاعر حسان بن ثابت في قوله :

انظر خليلي ببطن جلق هل

تونس دون البلقاء من أحد[١١]

وكانت الجولان قاعدة لملك الغساسنة ومعسكرا لـهم ، واتخـذ مدينـة (الجابية) مركزا لإماراتهم ، وكان موقعها بالقرب من (مرج الصفـر) في شمال حوران[١٢]، وليس هناك ما يشير الى ان الغساسنة قد تملكـوا دمشق او بصرى او تدمـر التـي حصنـها الإمـبراطور البـيزنطي جستنيان[١٣] (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) لكن ليس بالمستبعد انهم دفعوا ضريبـة الرأس للغساسنة .

وبما ان الغساسنة قبائل متحركة ، فان غالبية سكانها تعيش حياة الترحل والنقل ورعي الماشية[١٤]، فهم تغلب عليهم البداوة ، والبداوة مرتبطـة بوفرة المياه ووجود المراعي وعلاقة ذلك بفصول السنة المختلفة، ففـي الربيع تغطي النباتات السهول والصحـارى الرمليـة ذات الحصـى ، وتتوافر في وقت قصير جدا ولا تحتاج الماشية فيه الى الماء كثـيرا ، كما ان البدوي يعيش على البان قطعانهم، وفي الصيف يعود البدو مـن

---

[١١] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة (١٣٢١هـ) ص ٣٣ ، ٧٩ .

[١٢] نولدكه ، امراء غسان ، ص ٥١ .

[١٣] العلي ، صالح احمد، تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية ، شركة المطبوعـات للتوزيع والنشر ، بيروت (٢٠٠٠م) ص ١٠٨ .

[١٤] بيغوليفسكيا ، نينا فكتورفنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران ، مـن القـرن الرابع الى القرن السادس الميلادي ، ترجمة : صـلاح الديـن هاشـم ، الكويـت (١٩٨٥م) ص ٢٩١ .

المراعي الربيعية الى مناطق الآبار والعيون، وفي الخريف والشتاء يلجأ الى الواحات إذا لم يسقط الغيث[١٥]، ومن مناطق رعيهم (ديرة التلول) الواقعة شرقي دمشق، التي تغطيها الأعشاب والأزهار في مواسم الأمطار ، وحرة وادي رجيل ، التي تتغطى في مواسم الأمطار بأعشاب نادرة تقبل الأغنام على رعيها إقبالاً كبيراً[١٦].

وهذا التنقل حبب لهم الصيد وبالذات البري ، ويتوضح ذلك من القصو الأبيض[١٧] الذي ينسب للغساسنة وفيه نقوش جميلة تجسد الكثير من الحيوانات منها الطيور والفهود والخيول والأسود والبقر وحتى الأسماك[١٨]، وهذا يعني انهم ايضاً اهتموا بالصيد النهري .

بعد ذلك اخذ بعض الغساسنة يميل الى الاستقرار ، لاسيما احتكاكهم بالمدن المتحضرة في بلاد الشام، كما اخذوا يشتغلون بالزراعة، لاسيما ان العوامل المساعدة متوافرة في المنطقة التي سيطروا عليها ، ومنها المياه التي تنحدر من ثلاثة مجاري أساسية من السفح الشرقي لجبل حوران لتنتهي الى حرة وادي رجيل ، لكن هذه المياه تجف في فصل الصيف ، وفي منطقة الرحبة التي تمتاز بأنها سهل منخفض يبلغ طوله

---

[١٥] كاسكل ، ف ، الدور السياسي للبدو في التاريخ العربي ، ترجمة : الدكتور منذر البكر ، مجلة ــ الخليج العربي) المجلد العشرون ، ع١ ، البصرة (١٩٨٨ م) ص ٧٨ .

[١٦] ديسو ، رينيه ، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة : عبد الحميد الدواخي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة (لا . ت) ص ٢٦ ــ ٢٧ ..

[١٧] مربع الشكل ، به أبراج ذات زوايا ، وجداره مكون من واجهتين مرصوصتين قد ملئ ما بينهما بالأحجار والبلاط (ديسو ، العرب في سوريا ، ص ٢٩) .

[١٨] جرجي زيدان ، لعرب قبل الإسلام ، دار الهلال (لا . ت) ص ٢٢٠ .

عشرين كيلومتر تقريباً وعرضه بين خمسة او ستة كيلومترات ، يكون في فصل الشتاء بحيرة كثيرة المستنقعات[١٩]، والمياه المتدفقة من أعالي جبال حوران غمرت الكثير من القرى والضياع ، عدد الشاعر حسان بن ثابت من بينها ثلاثين قرية [٢٠].

ومن خلال الاطلاع على أعمال وإصلاحات ملوك الغساسنة عند المؤرخ (حمزة الاصفهاني)[٢١] يتوضح انهم قاموا ببناء عدد من القناطر والمنشآت المائية فقام (جبلة بن الحارث) ببناء القناطر[٢٢]، وقام (النعمان بن الحارث) بإصلاح صهاريج الرصافة (سرجيوسبوليس Segiopolis)[٢٣] التي خربها ملوك لخم (المناذرة)[٢٤]، ويؤيد ذلك (نولدكه) على الرغم من انه يشكك في رواية (حمزة الأصفهاني) فهو لا يستبعد قيام الغساسنة بكل هذه المنشآت، ويشير الى قيام (جبلة بن الحارث) ببناء القناطر ويرجح ايضاً قيام (انحارث بن جبلة) بهذا العمل وليس (جبلة بن الحارث) وذلك بعد حصار الملك الساساني كسرى انوشيروان (٥٣١ ـ ٥٧٩) لها

---

[١٩] ديسو ، العرب في سوريا ، ص ٢٧.

[٢٠] الشبيه ، عبد الله حسن ، محاضرات في تاريخ العرب القديم ، جامعة صنعاء (١٩٩١م) ص ٢٧٦) .

[٢١] سني ملوك الأرض ، ص ٨٩ ــ ٩٦ .

[٢٢] المصدر نفسه ، ص ٩١ .

[٢٣] نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٥٦ / والرصافة ، مدينة مقدسة عند البعاقبة ، إذ فيها مرقد القديس (سرجيوس) .

[٢٤] الأصفهاني ، سني ملوك الأرض ، ص ٩٤ .

سنـــة ٥٤٢ م وتخريبها[٢٥].

ويضيف (نولدكة)[٢٦] ان لفظ (بناء) كثيراً ما تستعمل هنا للدلالة على تجديد عمارة قديمة الى إنشاء بناء للمرة الأولى ، وكل هـــذه الأعمـــال تصب في السيطرة على المياه وخزنها ، لغرض استخدامها عند الحاجة وليس هذا فقط بل شقوا الترع[٢٧] لإيصال الميـــاه الـــى الأرض التـــي يريدون زراعتها .

كذلك توجد أراضي خصبة في كثير من المناطق التي ســـيطر عليـــها الغساسنة ، منها الصخور البركانية بجبل حوران ، وقد تفتت الى درجة أنها أصبحت ارض زراعية حمراء غنية تمتد على طول السفح الغربي للجبل ، كما تمتد في وادي النقرة وفي منطقة الرحبة أراض خصبـــة ، تصبح في وقت الربيع حقلاً زراعياً بديعاً ، وفي الوقت الحاضر تـزرع القمح والشعير وليس في بلاد الشام افضل من هذه البقعة في زراعـــة القمح ، وكذلك وادي النقرة الذي يزرع فيها قمـــح حـــوران الشـــهير بصلابته وجودة نوعه [٢٨]، فضلاً عن زراعة القمح والشـــعير فانـــهم اهتموا بإنبات الأشجار ومنها الكروم ، وهذا واضح من رسوم شـــجرة الكروم ، على جدران قصر المشتي الغساني الذي يرجع بنيانـــه الـــى القرن السادس الميلادي ، والرسم يمثل مراحل تطـــور هـــذه الشـــجرة

---

[٢٥] أمراء غسان ، ص ٥٦ .

[٢٦] المصدر نفسه ، ص ٥٥ ــ ٥٦ .

[٢٧] العزيز ، حسين قاسم ، موجز تاريخ العرب والإسلام ، مكتبة النهضة ، بيروت و بغداد (١٩٧١م) ص ٨٨.

[٢٨] ديسو ، العرب في سوريا ، ص ٢٦ ــ ٢٨ .

ووصول ثمارها الى مرحلة النضج[٢٩]، وربما يرجع هذا الاهتمام الى استخدام ثمارها كمادة أولية لصناعة الخمور .

وفي رواية يذكرها (ابو الفرج الأصفهاني)[٣٠] ان جبلة بن الايهم كان يفترش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وهذا يدل على ان زراعتهم لم تقتصر على المواد الغذائية بل شمل النباتات الصناعية التي يمكن الاستفادة منها لصناعة الاطياب والعطور .

وليس لدينا معلومات كافية عن الصناعة عندهم ، سوى ما استنتجناه سابقاً من صناعة الخمور والعطور ، وربما بعض من صناعة المنسوجات والصناعة الغذائية والصياغة ، فقد كان جبلة بن الايهم الغساني يضع العنبر والمسك في صحاف الذهب والفضة[٣١].

أما عن تجارة الغساسنة ، فيبدو عن طريقها امتد تأثيرهم الى داخل شبه الجزيرة العربية ، من خلال التحالفات السياسية (مع القبائل العربية) والحملات العسكرية[٣٢] فقد اخذ هاشم بن عبد مناف حبلاً (معاهدة ، عقد) من غساسنة بلاد الشام[٣٣] لتسهيل التبادل التجاري بينهما ، كما عقد الايلاف مع القبائل التي على الطريق التجاري مع بلاد الشام لتأمين

---

[٢٩] المصدر نفسه ، ص ٥١ .

[٣٠] الأغاني ، دار صادر ، بيروت (١٩٦٥م) مجلد ١٦ ، القسم الأول ، ص ٢٦ .

[٣١] المصدر نفسه .

[٣٢] كاسكل ، الدور السياسي للبدو ، ص ٧٧ .

[٣٣] الطبري / محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق ، محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٦٨م) ج٢ ، ص ٢٥٢ .

الطريق[٣٤] وبذلك اخذ أهل مكة ينقلون الى بلاد الشام الحرير الصيني وخشب الصندل والتوابل والأحجار الكريمة وهي من سلع الهند واما السلع الأفريقية فكان أبرزها العطور والذهب والعاج والرقيق ولم تقتصر تجارة مكة مع بلاد الشام في عهد الغساسنة على التعامل بالسلع القادمة من خارج شبه الجزيرة العربية، بل انها اشتملت على السلع والبضائع المنتجة محلياً ومنها : الجلود المذهبة (الادم) التي كانت تصنع في (اليمن والطائف) والزبيب من (الطائف) والمعادن من (الحجاز) والعقيق واللبان والمر واللادن من (اليمن) اما السلع التي تعود بها القوافل المكية من بلاد الغساسنة (الشام) القمح من حوران والبلقاء ، فضلاً عن الخمر والجواري والأسلحة والمنسوجات[٣٥].

وكانت في بلاد الشام عدد من الأسواق أو المراكز التبادلية تستقطب تجارة مكة ومصر والحيرة وفارس ، فضلاً عن دومة الجندل[٣٦] التي هي (سوق القبائل الكبير) .

ورؤساؤه مرة من قبل سكون ملكهم اكيدر ومرة قنافة الكلبية إذ غلبت غسان، وكانت غلبتهم ان الملكين (السكوني والغساني) كانا يتحاجيان فايما ملك غلب صاحبه بإخراج ما يلقى عليه ، تركه والسوق فصنع فيها ما يشاء ، ولم يبع بها أحد شيئاً الا بأذنه حتى يبيع الملك كل ما أراد بيعه ، مع ما يصل اليه من عشورها ، ويقع سوق (دومة الجندل)

---

[٣٤] القالي ، ابو علي إسماعيل ، كتاب الامالي ، بيروت (لا . ت) . مجلد ٢ ، ص ١٩٩ .

[٣٥] إبراهيم بيضون ، الايلاف القريشي ، مجلة (تاريخ العرب والعالم) ع٢ ، الكويت ١٩٨٢م) ص ٣٣ .

[٣٦] المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

فيما ين بلاد الشام والحجاز ، وقيامها في أول يوم من شهر ربيع الأول الى النصف منه ، ثم ترقٌ فما تزال قائمة الى راس الشهر ، ثم يفترقون عنها الى مثلها من قابل[٣٧]، وكانت مبايعة العرب في هذا السوق هو إلقاء الحجارة ، وذلك انه ربما اجتمع على السلعة النفر ، يساومون بها صاحبها ، فايهم رضى ، ألقى حجره ، فربما اتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بداً من ان يشتركوا وهم كارهون ، وربما اتفقوا فالقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على امر بينهم فوكسوا صاحب السلعة إذ طابقوا عليه .. ثم يرتحلون من سوق (دومة الجندل) الى سوق (المشقر) بهجر[٣٨] ، والدليل على أهمية هذا السوق عند الغساسنة ، ان جبلة بن الايهم قاتل خالد بن الوليد عند دومة الجندل[٣٩]، لانه يدر لهم أموال طائلة تزيد من مواردهم المالية ، التي منها ضرائب الرأس التي كانت تفرض على القبائل العربية التي تحت سيطرتها، لهذا فان من أسباب الاحتكاك بين الغساسنة والمناذرة ، هو السيطرة على منطقة ستراتا (Strata) وهي البادية الواقعة على جانبي الطريق من دمشق الى ما بعد تدمر حتى الرصافة (سرجيوس بوليس) فقد ادعى كل منهما ان قبائل العرب الضاربة في هذه الأرض تخضع لسلطانه ، وان ضريبة الرأس (الجزية) لا بد ان تدفع له[٤٠]، ومن مواردهم المالية العشر على القوافل التجارية التي تمر بأراضيهم فكان (زنباع بن

---

[٣٧] ابن حبيب ، المحبر ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

[٣٨] المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

[٣٩] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٣٧٨ .

[٤٠] نولدكه ، أمراء غسان ، ص ١٨ .

روح) يعشر هذه القوافل لصالح الحارث بن شمر الغساني[٤١] اما العملة التي يتداولها الغساسنة فهي الدينار الذهبي البيزنطي ، لانهم لم يكن لهم عملة خاصة بهم ، كذلك لا بد انهم تعاملوا بالدرهم الفضي الساساني ، وكانت لهم مقدرة في بيان قيمة العملة المتداولة على أساس الوزن والنقاء ، بصفتهم وسطاء تجاريين مهمين آنذاك بين مصر وشبه الجزيرة العربية والعراق وفارس والروم ، وبعد زوال دولة الغساسنة ، أخذت القبائل البدوية المتنقلة تتطاحن وتتنازع فيما بينها ، كما اخذ بعضهم يهاجم السكان المتحضرين فينهبون مواشيهم ويدمرون مزارعهم[٤٢].

ونستنتج من ذلك ان الغساسنة الذين استقروا في بلاد الشام بعد هجرتهم من اليمن في أواخر القرن الخامس الميلادي كانوا في حالة حركة دائمية ، ما ين حوران حتى منعطف نهر الفرات ، وكان بعضهم على نهر بردى ، واتخذت (الجابية) مركزاً لإماراتهم .

لذلك غلبت عليهم البداوة فكانوا يتنقلون وراء الماء والكلا ويمارسون الصيد ويتوضح لك من زخرفة الرسوم على القصر الأبيض ، كما اخذ بعضهم يستقر ويمارس مهنة زراعة الأرض لاسيما ان ملوكهم اخذوا يهتمون بإنشاء وإصلاح الترع والمنشآت المائية والقناطر فزرعوا القمح والشعير ، وأنبتوا الأشجار ومنها الكروم ، لغرض صناعة الخمور ، وقاموا بصناعة العطور والمنسوجات والصناعات الغذائية والصياغة .

---

[٤١] جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، مكتبة النهضة ، بيروت وبغداد (١٩٧١م) جـ٢ ، ص ٣٧١ ، ٤٧٩ .

[٤٢] العلي ، تاريخ العرب القديم ، ص ١٠٥ .

لكن الغساسنة كان لهم تأثير واضح في التجارة لسيطرتهم على الطـوق التجارية المارة في بلاد الشام ، فكانت تمر عن طريقهم سـلع الصيـن والهند وأفريقيا واليمن ، وكانت لهم محطات ومراكز تجارية واسـواق متفرقة ولكن أهم هذه الأسواق هو سوق دومة الجندل في حالة غلبتـهم على (اكيدر السكوني) ، وكذلك من مواردهم المالية ضريبة الـرأس التي يفرضونها على القبائل المنطوية تحت سلطتهم ، فضلاً عن ضريبة العشر على القوافل التجارية .